بسم الله الرحمن الرحيم

***** إنما المؤمنون إخوة *****

طارق بن عبد الرازق

إنَّ الحمدَ للهِ – تعالىٰ – نحمدُهُ ، و نستعينُ به و نستغفرُهُ ، ونعوذُ باللهِ العظيمِ مِن شُرُورِ أنفُسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا ، مَنْ يَهدِ اللهُ – تعالىٰ – فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادىٰ له .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، و أشْهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ و رسُولُهُ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران/١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء/١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب/٧٠-٧١]

أمَّا بعدُ :

فإنَّ أصْدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ – تعالىٰ – ، و خيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحمَّدٍ – صلىٰ اللهِ عليه وسلَّم – ، وشرَّ الأمورِ مُحدَثاتُها ، وكلَّ محْدَثَةٍ بدعةٌ ، و كلَّ بدعةٍ ضلالةٍ .

قال اللهُ – عَزَّ وجلَّ – في أثناء سورة الحُجُرات : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجُرات /١٠]

يا غافلاً وله في الدَّهْرِ مَوعِظةٌ *** إنْ كُنتَ في سِنَةٍ فالدَّهْرُ يَقْظانُ

فجائعُ الدَّهْـرِ أنواعٌ مُنَوَّعَـةٌ *** وللزَّمانِ مَسَرَّاتٌ وأحْـــــزانُ

هِيَ الأيامُ كما شاهَدْتَها دُولٌ *** مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتهُ أزمَـــانُ

وهَذِهِ الدَّارُ لا تُبْقِي على أحَدٍ *** ولا يَدُومُ على حالٍ لَها شَـــانُ

أيُّها الإخوةُ الكرامُ : إنَّه من المعروفِ والثَّابتِ أنَّ النَّبيَّ – صلَّىٰ الله عليه وسلَّم – لمَّا هاجرَ من مكَّةَ المُكَرَّمةِ وجعلها خلف ظهرِه ، واسْتقبلَ بوجهه الأنورِ المدينةَ التي أضاءتْ بنزولِه فيها ، ووَطِئَتْ قدماه حَصَىٰ يثربَ ومَشَىٰ فىٰ طُرُقاتِها ، وهو يرسُمُ صورةً لدولتِهِ الجديدة ، ويَمُرُّ في نفْسِهِ ويجري في قلبِهِ وعقلِهِ المثالُ الذي يُريدُه لأصْحَابِهِ وأتْباعِهِ علىٰ دينِه وأُمَّتِهِ مِن بعدِه = فلمَّا التقىٰ بالأنصارِ أهلِ المدينةِ وسُكَّانِها وصافحَ وجوهَهم ، والتقىٰ بالمُهَاجرين الذين سبَقوه إليها = فعل ثلاثةَ أشياءَ أساسِيَّةً :

فكان أوَّلَ شيءٍ قَصَدَهُ وعزَمَ عليه وفَعَلَه : أنَّه بَنَىٰ لهم المَسْجِدَ لكي يربطَ الأرضَ بالسَّماءِ ، ويعلِّقَ قلوبَ النَّاسِ وآمالَهم بخَالِقِهم العَظِيمِ ومعبودِهم الكريمِ – عَزَّ وجْهُهُ وتَبارَكَ اسْمُهُ – . إذ إنَّ الأرضَ وَحْدَها لا تُقَدِّسُ أهلَها ، ولا تُعِزُّهم ولا ترفَعُ خسيسَتَهم ، ولا تُزَكِّي نفوسَهم ، ولا تربِّي قلوبهم ، ولا تبني ضمائرَهم ، ولا تجعلُ لهم قيمةً ، وليس كما يقولُ بعضُ الأغبياءِ الجَهَلةِ والسُّفَهاءُ الحَمقىٰ : إذا الشَّعبُ يَوْماً أراد الحياةَ *** فلابُدَّ أنْ يَسْتَجيبَ القَدَر

بل إنَّ الأمرَ كُلَّه لله ، والخَلقُ جميعًا عبيدُه وصَنْعَتُهُ ، وكُلُّهم مُلكُ يدِهِ ، يَحْكُمُ فيهم بما يَشاءُ ، ويَقْضي فيهم بما يُريدُ ، ولا رادَّ لأمرِه فيهِم ، ولا مُعقِّبَ لحُكْمِهِ عليهم ، وإنَّما يَبْتَلِىٰ بعضَهم ببعضٍ لِيُظْهِرَ مكنونَ نفوسِهم ومَخبوءَ قلوبِهم ، وليكشِفَ سرائرَهم وخبأيا ضمائرِهم ، وإنَّما هىٰ أرحامٌ تَدْفَعُ وأرضٌ تَبْلَعُ ، وإلىٰ الله المَصيرِ : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [البَقَرة/٢٨١]

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود/١٠٨]

وأمَّا الشَّيُْ الثَّاني الذي فعلَه النَّبيُّ – صلَّىٰ الله عليه وسلَّم – بَعْدَ دُخُولِهِ إلىٰ المدينةِ المُنَوَّرةِ : أنَّه عقد العُهودَ والمواثيقَ بينه وبين طوائف المُخالفين له فيها من اليَهودِ والمُشْركِيْنَ وغيرِهم ، لِيتفرَّغَ لبناءِ دولتِهِ ، وتَعْريفِ النَّاسِ بحقيقةِ رسالتِهِ ، وإزالةِ الصُّورةِ المَشْبوهةِ التي رَسَمَها إعلامُ ذلك الزَّمانِ عن دعْوتِهِ ، لِيَسْمع النَّاسُ شريعةَ الإسْلامِ ممَّنْ أُنْزِلَ عليه الإسْلامُ ، لا لِيَسْمَعوا عن الإسْلامِ مِنْ خُصومِ الإسْلام .

أرادَ تخريجَ جيلٍ يتعَلَّمُ الإيمانَ والوَحْيَ ، ويَتَربَّىٰ علىٰ الدِّينِ والشَّرع ، ويتحَمَّلُ مسئوليَّتَهُ بلا ضَعْفٍ ، ويُبَلِّغُ رِسَالَتَه بلا عَجْزٍ ، ويُؤدِّي الأمانةَ بلا إخْلالٍ ولا تَقْصيرٍ .

فإنَّ أصحابَ النُّفوسِ الرِّخوةِ والعزائمِ الضَّعيفةِ ، والأفكارِ الهزيلةِ ، والعُقولِ الطَّائِشَة المُسْتَعْجلةِ = لا يُؤَسِّسون حقًّا ، ولا يردُّون باطلاً ، ولا يُقِيمون دولةً ، ولا يَتَحمَّلون أعْباءَ رسالة ، ولا يحفظون دينًا ولا دنيا .

فأرادَ النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّم – أن يَحُوطَهم برعايتِهِ واهْتِمامِهِ ، وأنْ يبتعِدَ بهم عن بيئة النزاع والصِّراع في أوَّلِ أمرهم ، حتىٰ يَشْتَدَّ عودُهم وتقوىٰ قلوبُهم ، وتَكونَ عندَهُم مُقَوِّماتُ الدَّولةِ ومُؤَهِّلاتُ التَّنافسِ والنِّزاع .

فإنَّ النَّبتةَ الصَّغيرةَ لا تقوىٰ فىٰ أوَّلِ أمرها علىٰ مواجهة الإعصار ، وتحتاجُ إلىٰ الرعايةِ والإحاطة حتىٰ تصيرَ نَخلةً كبيرةً ، وتضْرِبَ بجذورِها في الأرض ، فحينئذٍ لا يُهلِكُها موجٌ ، ولا تقتلعُها رِّيح ، وإنَّما فقط تُمِيلُها جنبًا إلىٰ جنبٍ ، وهي ثابتةُ الأصل ، راسخةٌ في الأرض وما يعْجَزُ عنه الولدُ الصغير في طفولته بسبب صِغَره وضعفِ قوَّتِهِ يَسْهُلُ عليه في شبابِه وكِبَرِه بعد إكتمال قوَّته .

فكان الصَّحابةُ – رضىٰ الله عنهم – يُؤذَوْن ويُشْتَمون ، ويسمَعون سبَّهم بآذانِهم ، ثُمَّ يتَنَزَّلُ القرآنُ علىٰ الرَّسولِ يَقولُ لهم ﴿ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ [النِّساء / ٧٧]

بمعنىٰ : أنَّه لم يأتِ بعدُ وقتُ الخُصومةِ مع غيْرِكم ، ولستُم الآنَ مأهَّلين للنِّزاع مع خُصُومِكم فدعونا نَعْبُدُ ربَّنا أوَّلاً ، ونُطَبِّقُ أحْكامَهُ في واقعِ حِياتِنا ، وندْعُو إلىٰ دينِهِ وشَرْعِهِ في أهْلِينا وبلادنا .

دَعُونا نعملُ في هدوءٍ ، ونبني دولَتَنا ونُقيمُ حَضَارَتَنَا .

حتىٰ أُذِنَ لهم بالجهادِ في سبيل الله فجاهدوا وفتحوا ثلاثةَ أرباعِ العالم في مُدَّةٍ لا تُساوي في حِسابِ الزَّمَنِ شيئًا .

وأمَّا الشَّيءُ الثَّالثُ الذي فعلَه النَّبيُّ – صلَّىٰ الله عليه وسلَّم – : أنَّه وحَّدَ صُفوفَ شَعْبِهِ ، وآخَىٰ بين المُهَاجِرين والأنصار : فجمع شتاتَ الأنْصَارِ ولمَّ شملَهم ووحَّد قبائلَهُم ، ثُمَّ آخَىٰ بينهم وبين المُهَاجرين ، حتىٰ إنَّهم كانوا يتوارثون بهذه الأُخوَّة الدينية دون الأنساب والقَرابات ، فكان الرجلُ إذا مات لا يَرِثُهُ أولادُهُ ولا إخوتُهُ من النَّسَبِ ، وإنَّما يَرِثُهُ أخوه في الدِّينِ ، حتىٰ نزَلَ قولُ اللهِ – تعالىٰ – : ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ [الأحْزاب/٦]

فردَّ اللهُ – تعالىٰ – الميراثَ إلىٰ الأنسابِ والعَصَبَاتِ .

كانَ النَّبيُّ – صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّم – يقولُ لكلِّ واحدٍ منهم : هذا أخُوكَ ، هو منك وأنتَ منه ، لا يَنْبَغِي أنْ يُفرِّقَ بينكما شيءٌ مهما بلغ* .

كان يحفُرُ في نُفُوسِهم ، ويَغرِسُ في قلوبِهم أنَّهم روحٌ واحدة وإنْ تعدَّدتْ أبدانُهم واخْتَلَفَتْ أشخاصُهم أو علىٰ حدِّ قولِ السَّعد الشِّيرازي – رحمه الله – في مقطوعَتِهِ الرَّائِعَةِ ، والتي كانت معلَّقةً علىٰ مبنىٰ هيئة الأمم المُتَّحِدةِ بنيويورك = قال :

قــال ليَ المحبوبُ لمَّـا زُرتُه *** مَنْ ببابى ؟ قلتُ : بالبابِ أنا

قال لى : أخطأتَ تعريفَ الهوى *** حينما فرَّقتَ فيه بيننا

ومَضَى عامٌ فلمَّا جئتُه *** أطرُقُ البابَ عليهِ موهِنا

قال لى : مَنْ أنتَ ؟ قُلتُ : انظرْ *** فما ثَمَّ إلا أنتَ بالبابِ هنا

قال لى : أحسنتَ تعريفَ الهوى *** وعرَفتَ الحُبَّ فادخل يا أنا

يريدُ أن يقولُ : المؤمن للمُؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعْضُه بعْضًا ، ويُقوِّي بَعْضُهُ بَعْضًا .

المؤمنُ للمؤمنِ كالكَفِّ للكفِّ تُكمِّلُ إحداهما الأخرىٰ ، وتغسِلُ إحداهما الأخرىٰ ولو كان بينهما نوعُ خشونةٍ وسُخونةٍ ، وصاحبُ الكفِّ الواحدةِ ناقصٌ ، ومقطوعُ الكفَّيْن أنقَصُ منه .

المؤمنُ للمؤمنِ كالمرآة ، إذا نظرَ في وجهِ أخيه رأىٰ فيه نفسَه وصورتَه : بكمالِه ونقصِه ، بفضلِه وعَيْبِه ، بحسناتِهِ وسَيِّئاتِهِ ، بأفراحِهِ وأحْزانِه ، بسرورِهِ وهمومِهِ ، بآمالِهِ وآلامِهِ .

والمرآةُ دليلٌ لا يَخدَع ، وشاهدٌ لا يَغُشُّ .

وهجر بعضُ المسلمين أخاهُ وصَدِيقَهُ الذي صَاحَبَهُ زمانـًا طويلاً فكتب إليه يَلُومُهُ ويُعَاتِبه ، ويقولُ له : يا مَنْ مِنِّي ... يا مَن جزءٌ مِن أجزائي ... يا مَنْ تبدو للجُهَّالِ كأنَّك دائي ... إنِّي أعلمُ أنَّك حتمـًا فيكَ شفائي ... إنَّك مِنِّي ... أنتَ كأنِّي ... لستُ أُرائي ... يا مَنْ مِنِّي ... يا مَنْ جُزءٌ مِن أجزائي ... يا أنا .

فيقولُ لصاحِبِهِ وصَديقِهِ : " يا أنا " ، إذ لا فرقَ بينهما أصْلاً ، فهما كالجسد الواحدِ : " إذا اشتكىٰ منه عُضوٌ تَدَاعىٰ له سائرُ الجسد بالسهرِ والحُمَّىٰ "

كما قال الرسولُ الأكْرَمُ – صلَّىٰ الله عليه وسلَّم – : " مَثَلُ المُؤْمِنينَ في تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ : إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّىٰ "*

ولخَّص اللهُ – تَعَالَىٰ – هذا المَعْنىٰ الكبيرَ بقولِه هنا : " إنَّما المؤمنون إخوة " .

فمهما اختلفوا فىٰ آرائهم وأفكارِهم ، وكثيرٍ من عاداتهم وتقاليدهم ، وبعْضِ فروع دينهم = قلنا للجميعِ : ما بينكم أكْبَرُ " إنَّما المؤمنون إخوة "

إنْ دبَّتْ بينهم بعضُ الخُصومات ، ونشأتْ بينهم بعضُ النزاعات ، واختلفوا فىٰ الأساليب والوسائل ، وطُرُقِ الدعوةِ والتعليم ما لم يُخالفوا أصلاً شَرْعِيًّا = قلنا للجميع : الاختلافُ لا يُفسِدُ المودَّةَ ، وما بينكم أكبرُ " إنَّما المؤمنون إخوة "

إنْ وقع بعضُهم فىٰ عِرضِ بعضٍ ، ولم يسْلمْ بعضُهم مِن لسانِ بعضٍ ، ولم يُسلَّم بَعْضُهم علىٰ بعْضٍ ، واغتابَ بعضُهم بَعْضـًا ، وعيَّرَ بعضُهم بعضـًا ، وطعن فيه وجرَّحه = قلنا للجميع : اتَّقوا اللهَ وارجعوا ، ما بينكم أكبرُ " إنَّما المؤمنون إخوة "

إنْ خاصمَ بَعْضُهم بَعْضـًا ففجر فىٰ خصومَتِه ، وهجرَ بعضُهم بعضـًا فاعتدىٰ وأطالَ فىٰ هجرِه وعاندَ بعْضهم بَعْضـًا وسفَّهَ رأيَه ، وعارضَ بعْضهم بَعْضـًا ولم يَقْبل قولَه = قلنا للجميع : اتَّقوا اللهَ وارجعوا ، وإلا فأمرُكُم إلىٰ سِفالٍ ، وعاقبتُكم إلىٰ وبالٍ ، وما بينكم أكبر " إنَّما المؤمنون إخوة "

وذَكَرَ الذَّهَبيُّ في " السِّيَرِ " (٥/ ٣٩٦-٣٩٧) : أنَّ فُضَيْلَ بنَ غَزْوانَ قال : أتَيْتُ أبا إسْحاقَ – السَّبيعي** - بَعْدَما كُفَّ بَصَرُهُ وعَمِي = قال : فقلتُ له : تَعْرِفُني يا أبا إسْحاقَ ؟ قال : أنتَ فُضَيْل ؟ قلتُ : نَعَم . قال : إنِّي واللهِ لأُحِبُّكَ ، ولولا الحَياءُ لَقَبَّلْتُكَ ، فضَمَّني إلىٰ صَدْرِهِ ، ثمَّ قال : حَدَّثَني أبو الأحْوصِ عن عبدِ اللهِ بنِ مسْعودٍ – رضِيَ اللهُ عنه – في قولِ اللهِ – تعالىٰ – : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ ﴾ [الأنفال/ ٦٣] قال : نَزَلَتْ في المُتَحابِّينَ في اللهِ – عزَّوجلَّ – .

---

* رواه البخاريُّ (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) عن النُّعمان بن بشير – رضى اللهُ عنهما – .

** وهو من أوعيةِ العِلمِ وحُفَّاظِ السُّنَّةِ ومن عُلَماءُ المسْلمينَ وأئمَّتِهم الكبارِ .

وذكرَ النوويُّ – رحمه الله – في " شرحه على الأربعين " (ص/ ١٥ – الرِّياض النَّدِيَّة) : أنَّ بعضَ السَّلف خاصمه أخوه فتمادىٰ في خصومتِهِ ، وهَجَرَهُ فأطالَ في هَجْرِهِ !

فكتب إليه يعاتبه ، ويخبِرُه أنَّ هذا لا يليق بدينه وورعِه ، فقال له :

يا سيدى عندكَ لى مظلمـــةٌ *** فاستفتِ فيها ابنَ أبى خيثمةْ

لحديثٍ يرويه عـن شيخِـه *** قال : روى الضَّحَّاكُ عن عكرمةْ

عن ابنِ عبَّاسٍ عن المصطفى *** نبيِّنا المبعـوثِ بالمرحمةْ

إنَّ صدودَ الإلــفِ عن إلفـه *** فـوقَ ثلاثٍ ربُّنا حرَّمَـهْ

وانظر إلىٰ قولِ اللهِ – تعالىٰ – لـمَّا ذكَر القِصاصَ والقَتلَ – قال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة/١٧٨]

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ : فسمَّاه أخـًا له مع وجود القتل وسَفْكِ الدم !

وإنَّما عبَّر بالأخوَّة لِيُرَقِّقَ قلبَه ويُثيرَ عطفَه عليه ورحمتَه به ، ويَكْسِرَ فىٰ نفسِه شهوةَ الانتقام والتَّشَفِّي ، ويُذْهِبَ غَيْظَهُ عَلَيْهِ وغِلَّهُ مِنْ صَدْرِهِ ، فيُذكِّرُه بعلاقةٍ هىٰ أشدُّ وأوثقُ ، ورابطةٍ هي أقوىٰ وأعمق ، وهي أُخُوَّةُ الدين ورابطة الإيمان .

كما قال أبو تمَّام حَبيبُ بنُ أوسٍ – رحمه الله – في مِثْلِ هذا المعنىٰ :

إنْ يُكْدِ مُطَرَّفُ الإخاءِ* فإنَّنا *** نغدو ونَسرِى في إخاءٍ تالِـدِ**

أو يختلِفْ ماءُ الوِصالِ فماؤنا *** عذبٌ تحدَّرَ مِن غمامٍ واحـدٍ

أو يختلِفْ نَسبٌ يُؤَلِّفْ بيننا *** دينٌ أقمناهُ مَقامَ الوالِـدِ

فإنَّ هذا الدِّين هو النَّسبُ الذي يربِطُ بيننا ، وهو السَّببُ الذي يجمَعُ شملنا ، وهو العلاقة التي تُؤلِّفُ بين قلوبِنا ، وهو الكفيلُ بأنْ يُوَحِّدَ صفَّنا : فهَلْ حقًّا أقمناه مقامَ الوالدِ ؟!

---

* أىْ : إذا ضَعُفَتْ وبَهَتَتْ الأخُوَّةُ الجديدةُ ، أو ضاعت وتلاشتْ الصَّداقاتُ الحَديثةُ .

** أىْ : بيننا أخوَّةٌ قديمةٌ ثابتةٌ ، وعلاقةٌ قويَّةٌ راسخةٌ ، ورابطةٌ مَجيدةٌ خالدةٌ ، وهى : رابطةُ الإيمانِ وأخُوَّةُ الدين .

وقال اللهُ – عزَّ وجلَّ – : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٠٣]

فعَلَّقَ اللهُ – تعالَىٰ – حُصولَ الهدايةِ علىٰ الانتفاعِ بهذه الآياتِ مِن مَعرفةِ قيمةِ الأُخُوَّةِ في الدِّينِ وفَضْلِها ، ووجوبِ تحقيقِ المودَّةِ والألفةِ بيْنَ المُسْلِمينَ .

ومَحرومٌ من الهِدايةِ والتَّوفيقِ مَنْ فرَّطَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ أو أخلَّ به ، كُلٌّ علَىٰ حَسَبِ تفريطِهِ وإهْمالِهِ .

فإنَّ اللهَ – تَعالَىٰ – جَمَعَ شَمْلَنا بالإسْلامِ ، ولَمَّ شتاتَنا بالإيمانِ ، ووحَّدَ صُفوفَنا بدينِهِ وشرْعِهِ ، وآخَىٰ بيْنَ قلُوبِنا بالحُبِّ فيه .

فالمُؤمِنونَ تَلْتَقِي أرواحُهُم قبْلَ أنْ تَلْتَقِيَ أبدانُهم ، وتَتَصافَحُ قلوبُهم قبْلَ أنْ تَتَصافَحَ أكُفُّهُم .

وقال الله في وَصْفِهِم : ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح/٢٩] ، ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة/ ٥٤] ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [الأنفال/ ٧٢]

وذكَرَ أنَّ مِن دُعائهم أنَّهم يَقولُون :﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحَشر/ ١٠]

وقد ذكَرَ المُفَسِّرون لهذه الآيةِ سببَ نزولٍ : وذلك وقد ذكَرَ المُفَسِّرون لهذه الآيةِ سببَ نزولٍ ، وأنَّها نزلت في الأنصارِ من الأوسِ والخَزرجِ !

وذلك أنَّ رجُلاً من اليَهودِ – وهو قيس بنُ شاسٍ – مرَّ بملأٍ من الأوسِ والخَزرجِ وهم يَجلِسون سويًّا ويتحدَّثون ، فاغتاظَ جِدّاً لِمَا رأىٰ بينَهم من الألفةِ والمودةِ بعد طولِ النِّزاعِ والحروبِ التي كانتْ بيْنَهم قبْلَ الإسْلامِ = وساءَهُ ذلك ، فأمرَ رَجُلاً يَجْلِسُ بيْنَهم ويَخُوضُ في الحديثِ معهم ، ويُذَكِّرُهُم بما كانَ بيْنهم من الحروبِ والصِّراعاتِ والهزائمِ والانتصاراتِ = ففعلَ الرَّجُلُ ذلك ، وما يَزالُ يُذَكِّرُهُم بتاريخِهم قبْلَ الإسْلامِ وعداوتِهم السَّابقةِ والحُروبِ التي كانتْ بينهم حتَّىٰ حَمِيَتْ نُفوسُهُم وغَضِبَ بعضُهُم علَىٰ بعْضٍ ، وفَزِعوا السِّلاحِ ، وتَنادَوْا بشِعاراتِهم الجاهِلِيَّةِ ، وتواعدوا إلىٰ الحَرَّةِ – وهو موضِعٌ في المدينةِ لِيَقْتَتِلُوا فيه !

بعضِي على بعضي يُجَرِّدُ سَيْفَهُ *** والسَّهمُ مِنِّي نَحْوَ صَدْرِي يُرْسَلُ
النَّارُ تُوقَدُ في خِيامِ عَشيرتي *** وأنا الذي يا لَلْمُصِيبةِ أُشْعِلُ

فبَلَغَ ذلك الخبرُ إلىٰ النَّبيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّم – فجاءَهُم مُسْرِعـًا وجَعَلَ يُسَكِّنُهم ويُذَكِّرُهُم بما أكْرَمَهم اللهُ به من الدِّين ، وأنَّ هذه نزغةٌ من نزغاتِ اللهِ وأعدائهم ، ويقولُ لهم : " أبِدَعْوىٰ الجاهِليَّة وأنا بينَ أظْهُرِكُم ؟! " وتلا عليهم هذه الآيةَ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٠٣]

فرجَعُوا إلىٰ رُشْدِهم ونَدِموا علىٰ ماحَصَل منهم ، وألْقَوْا السِّلاحَ من أيْديهم ، واصْطَلَحوا وتعانَقوا .

واخْتَلَطَ ندَمُهم بالبكاءِ وكأنَّ القرآنَ لم يَنْزِلْ إلا يومَها ، وكأنَّهم لم يَشْعُروا بحلاوةِ الدِّينِ إلا ساعتَها ، وعلموا أنَّ هذه نزغةٌ من نَزغاتِ الشَّيْطانِ للتَّفريقِ بينهم ، وأنْ يقتُلَ بعضُهم بعضـًا

تَقَتَّلُ مِنْ وَتَـرٍ أعـزَّ نُفُـوسِـها *** عَلَيْها بأيدٍ ما تَكادُ تُطِيعُـها
إذا احْتَرَبَتْ يوماً ففاضتْ دماؤها *** تَذكَّرت القُرْبَى ففاضتْ دُمُوعُها

الحارثُ بنُ وَعْلةَ الجَرْميُّ اعْتَدَىٰ أبْناءُ عُمومَتِهِ علىٰ أخيهِ أمَيْمٍ فقتلوه !

فنظرَ الحارثُ إلىٰ أخيه وهو جُثَّةٌ مَقتولٌ ، ونازعَتْهُ نَفْسُهُ : هل يَقْتُلُ أبْناءَ عُمومَتِهِ ويَشْفِي ما في صَدْرِهِ منهم ، ولو قَتَلَهم سَتَضْعُفُ قُوَّةُ قبيلَتِهِ ويَقِلُّ عَدَدُهُم ، ويزرعُ بحراً من الأحقادِ والعداواتِ بينَه وبيْنَهم ، مع أنَّه صاحِبُ حقٍّ !

أم يَعفو عنهم ، ولو عَفا وصَبَرَ سيصْبِرُ علَىٰ أمرٍ أمَرَّ من الصَّبْرِ وأحرَّ من الجمرِ !

فقال وهو يُنازِعُ نفسَهُ :

قَومِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أخِي *** فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُني سَهْمِي
ولَئِنْ عَفوتُ لأعْفُونَ جَلَلاً *** ولَئِنْ سَطَوتُ لأُوهِنَنَّ عظمي

قال اللهُ – تعالَىٰ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشُّورىٰ/٤٣]

وروىٰ عبد الرَّزَّاقِ في " مُصَنَّفِهِ " (٧/ ٥٦٢ رقم ٣٧٩٣٣) والطَّبَرانيُّ في " مُعْجَمِهِ الكَبيرِ " (١/ ٤٦) وغيرُهُما : عن أبي كبيرٍ – واسْمُهُ عُمَيْرُ بنُ زُودِي – قال : خَطَبَنَا عليُّ بنُ أبي طالِبٍ يوماً فقامَ الخَوارجُ فقطعوا عليه خُطْبَتَهُ وكلامَهُ ، فنَزَلَ – من علىٰ المنبر فدخَل – أيْ : في دارِهِ – ودخلنا معه ، فقالَ : ألا إنِّي إنَّما أُكِلْتُ* يَومَ أُكِلَ الثَّورُ الأبْيَضُ .

ثُمَّ قالَ : مَثَلِي مَثَلُ ثلاثةُ أثوارٍ وأسَدٍ اجْتَمَعوا في أجَمَةٍ – أيْ : في غابةٍ – ثَورٌ أبيَضُ وأحْمَرُ وأسْوَدُ .

فكانَ الأسَدُ إذا أرادَ أن يَفْتَرِسَ شَيْئًا مِنْهُنَّ اجْتَمَعْنَ عليه فامْتَنَعْنَ مِنْه .

فأراد الأسَدُ أنْ يَفْتَرِسَهَا جَمِيعًا ، فاحتال حيلةً :

فقال للثَّورَيْنِ الأحْمَرِ والأسْودِ : تَعْلَمانِ ! إنَّه لا يَفْضَحُنا في أجَمَتِنا هذه إلا مَكَانُ هذا الثَّورِ الأبْيَضِ ، فَخَلِّيا بيني وبينَهُ حتَّىٰ أفْتَرِسَهُ وآكُلَهُ ، ثُمَّ أخْلُو أنا وأنتُما في هذه الأجَمَةِ فتكون لنا وحدنا ، فلونُكُما علىٰ لَوني ، ولوني علىٰ لَونُكُما .

قال : ففعلا وتَركاه علىٰ الثَّورِ الأبْيَضِ ، فوَثَبَ عليهِ فلم يَلْبَثْ أنْ قتلهُ وافتَرَسَهُ .

قال : فكان بعدَ ذلك إذا أرادَ أنْ يَفْتَرِسَ أحَدَ هَذَيْن الثَّورَيْن – الأحمرَ والأسودَ – احْتَمَىٰ أحدُهُما بصاحبِهِ واجْتَمعا عليه فامتَنعا منه .

فقال الأسَدُ يوماً للثَّور الأحْمَرِ : يا أحْمَرُ تَعْلَمُ ! إنَّه لا يُشَهِّرُ بنا ويَفْضَحُنا في أجَمَتِنا هذه إلا هذا الثَّورُ الأسْوَدُ ، فخلِّ بيْني وبيْنَهُ حتَّىٰ أفْتَرِسَهُ وآكُلَه ، ثُمَّ أخلُو أنا وأنتَ ، وتكونُ الأجمةُ كُلُّها لنا وحدنا ، فلوني علىٰ لونِكَ ، ولَونُكَ علىٰ لَوني !

قال : ففعلَ ، وتَرَكَ الأسَدَ علىٰ الثَّورِ الأسْوَدِ ، فوثَبَ عليه الأسَدُ ، فلم يَلْبَثْ حتىٰ قَتَلَهُ وافْتَرَسَهُ .

ثُمَّ مَكَث الأسَدُ ما شاءَ اللهُ ، ثُمَّ قال للثَّوْرِ الأحْمَرِ : يا أحْمَرُ إنِّي أريدُ أن آكُلَك .

قال : تأكُلُني ؟!** قال الأسَدُ : نعم ، وما الذي يمنعكَ مِنِّي وقدْ أكَلْتُ أخَوَيْكَ قبْلَكَ ؟

فقال ذلك الثَّورُ الأحمرُ : أمَا لا ، فدَعْني حتَّىٰ أصُوتَ – أيْ : أصرُخَ – ثلاثةَ أصواتٍ ، ثمَّ شأْنك بي .

قال : فقال : ألا إنِّي إنَّما أُكلْتُ يَومَ أُكِلَ الثَّورُ الأبيضُ ، ثلاثَ مرَّاتٍ .

قال عليٌّ – رَضِيَ اللهُ عنه - : ألا وإنِّي إنَّما أُرهِبْتُ يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ – رضِيَ اللهُ عنه - .

لماذا التقاطعُ فى الإسلامِ بينكمُ *** وأنتمُ يا عبادَ اللهِ إخــوانُ

ألا نفوسٌ أبِيَّـاتٌ لــهـا هِمَـمٌ *** أمَا على الخير أنصارٌ وأعوانُ

---

* أيْ : ضَعُفْتُ وتَجَرَّأَ النَّاسُ عليَّ .

** أيْ : كيْفَ تأكُلُني ونَحْنُ شُرَكاءُ في الوطَنِ ، وكانتْ بيْننا مَصَالِحُ مُشْتَرَكَةٌ !

وقال المُهلَّبُ بنُ أبيْ صُفرة لأولاده وهو يُعلِّمُهم هذا الدرسَ من دروس الحياة ، ويُلَقِّنُهم ضرورةَ الوحدةِ والاجتماع :

كونوا جميعاً يا بَنِيَّ إذا اعترى *** خطبٌ ، ولا تتفرَّقوا آحاداً

تأبى الرِّماحُ إذا اجتمعنَ تكسُّرا *** فإذا افترقنَ تكسَّرت أفراداً

وقال المقنَّعُ الكندي وهو يصف هذا المعني :

إنَّ الذي بيني وبين بني أبي *** وبيْنَ بَني عَمّي لَمُخْتَلِفٌ جِداً

فإنْ يَأْكُلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ *** وإنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لهم مَجْداً

وإنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ *** وإنْ نَهَشُوا عِرْضِي وَفَرْتُ لهم عِرْضاً

وإنْ بادَءوني بالعَداوةِ لَم أكُن *** أُبادِئهُم إلا بما يُثْبِتُ الرُّشْدا

وإنْ زَجَروا طَيْراً بنَحْسٍ تَمُرُّ بي *** زَجَرْتُ لهُمْ طَيْراً تَمُرُّ بِهم سَعْدا

ولا أحْمِلُ الحِقدَ القَديمِ عليهمُ *** وليسَ رئيسُ القَومِ مَن يَحْمِلُ الحقْدا

لَهُمْ جُلُّ مالي إنْ تَتَابَعَ لي غِنَى *** وإنْ قَلَّ مالي لم أُكَلِّفْهُم رِفْداً*

---

* أيْ : لم أكُن عالةً عليهم ، ولم أسْألْهُم شيْئاً من أموالِهم !

وهذه الأُخوَّةُ – أيُّها الإخوةُ – لها حدودٌ وأحكامٌ ، وحقوقٌ وواجباتٌ ، وفضائل وثمراتٌ ، وأسبابٌ لجَلْبِها وتحصيلها ، وتثبيتِ المودَّةِ بين قلوبِ المؤمنين .

فمِن أشرفِ ثمرات هذه العبادةِ الكريمةِ وأعظمِ فضائلِها :

أنَّها ترفعُك إلىٰ المنازلِ العاليةِ والدَّرَجَات السَّاميةِ بأقلِّ عملٍ وأدنىٰ اجتهادٍ :

فإذا كنتَ فقيراً لا مال لك ، ولاتملِكُ ما تتَّصدَّقُ به ، أو كنتَ ضعيفَ الهِمَّة أو البَدَنِ لا تَقْوَىٰ علىٰ طُولِ العبادةِ ، ولا أن تَجْتَهِدَ فِي التَّقرُّبِ إلىٰ ربِّكَ ، إذا لم تَسْتَطِعْ أنْ تقومَ باللَّيْل أو أنْ تصومَ تَطُوُّعًا بالنَّهَار ، ولا أنْ تُجَاهِدَ في سبيلِ اللهِ بنَفْسِك أو مالِك ، ولا أن تدعُوَ إلىٰ اللهِ بالكَلِمَةِ المَكْتوبةِ أو المَسْمُوعَةِ ، ولا أنْ تَتَعَلَّمَ عِلْمًا نافِعًا ولا أنْ تَعْملَ عَمَلاً مُميَّزاً = فلا أقلَّ من أنْ تُحِبَّ إخوانَك في الله – تعالَىٰ – ، أنْ تكونَ سَلِيمَ الصَّدْرِ نَحْوَهُم ، وأنْ يَسْلَموا من لِسانِكَ ويَدِكَ – نقاءُ نَفْسٍ وصَفَاءُ سريرةٍ – أن يكونَ بينَكَ وبيْنَهم مودَّةٌ وأُلفةٌ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

روىٰ البُخاريُّ (٣٦٨٨) ومُسْلِم (٢٦٣٩) وغيرُهما عن أنسِ بنِ مالكٍ – رضِيَ اللهُ عنه – : أنَّ رجُلاً سأَلَ رسولَ الله – صَلَّىٰ اللهُ عليه وسَلَّم – عن السَّاعة ، فقال : مَتَىٰ السَّاعَةُ ؟ سؤالاً عنها أو اسْتِعْجالاً لها ! فقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عليه وسَلَّم – : " ومَاذا أعْدَدْتَ لَهَا ؟ "

يَعْنِي : يا أيُّها السَّائلُ عن السَّاعةِ هل عندك من الأعمال العظيمةِ والعِباداتِ الكبيرةِ ما يُبَيِّضُ وجْهَكَ إذا قامتِ السَّاعةُ ؟ هل في تاريخِكَ الماضي وأيَّامِك الخَوالي ما يَقِي وجهَكَ لَفْحَ النَّارِ إذا قامَتِ السَّاعة ؟

إذا قال لك ربُّك يومَ القيامةِ : عبدي خلقتُكَ مِن عدَمٍ ولم تكُن شيئًا مذكوراً ، وأسبَغْتُ عليك من نِعَمِي ، ووسَّعتُ عليكَ من فضلي ، وقد نزلتَ من بطنِ أمِّك فقيراً ضعيفًا ، ومَدَدْتُ لك في العُمُر وأمهلتُ لك في الأجَلِ = فماذا عمِلتَ لهذا اليوم العظيم ؟ " ومَاذا أعْدَدْتَ لَهَا ؟ "

قال أنسٌ : فكأنَّ الرجلَ اسْتَكان – أيْ : خضعَ ، وراجَعَ نَفْسَهُ فسكت – ثُمَّ قال : يا رسول اللهِ ! ما أعددتُ لها كبيرَ عَمَلٍ من صيامٍ ولا صلاةٍ ولا صَدَقَةٍ ، ولكنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسُولَهُ .

– أيْ : هذا هو أكثرُ الأعمالِ المُضيئةِ في حياتي ، وهو الذي أرجو ذُخْرَهُ وثوَابَهُ يومَ القيامة .

فقَالَ رسُولُ اللهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسَلَّم – : " أنتَ مع مَن أحبَبْتَ "

قال أنسٌ : فما فَرِحْنا بشيءٍ بَعْدَ الإسْلاَمِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّم – : " فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ " – لم يفرَحُوا بَعْدَ إسلامِهم بكثرةِ الصَّلاةِ والصِّيامِ ، والحَجِّ والعُمْرَةِ ، والصَّدَقَةِ والجهادِ فرحةً أشدَّ من فرحتِهم بثوابِ الحُبِّ في اللَّهِ .

قَالَ أَنَسٌ : فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ .

ونَحْنُ كذلك بالتَّبَعِ نقولُ : إنَّنا نُحِبُّ اللَّهَ ورسُولَهُ ، وأبا بكرٍ وعُمر ، وسائرَ الصَّحَابَةِ المرضِيِّين ، والتَّابعين المَهديِّين ، والأئمَّةَ في الدِّين ، ونرجو أن نكونَ مَعَهُم وإنْ لم تُبلِّغْنا أعمالُنا منازلَهُم .

وروىٰ البُخَاريُّ (٦١٦٩) ومُسْلِمٌ (٢٦٤٠) وغيرُهما : عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ :

جاء رجلٌ إلىٰ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّم – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ - أيْ : في النَّشَاطِ والهِمَّةِ ، وكَثْرَةِ العَمَلِ والعِبادةِ - .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيه وسَلَّم - : " المَرْءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ " .

– أيْ : مَعَهُم في الدَّرَجَةِ والمَنْزِلَةِ ، وإنْ لم يَكُنْ مِثلَهُم في العَمَل و العبادةِ –

فانْظُر إلىٰ فضلِ هذه العبادةِ العَظِيمَةِ ، ثُمَّ اسْأَلْ ربَّكَ بإخْوَانِ صِدقٍ تُحِبُّهم في اللَّهِ ويُحِبُّونَكَ .

أُحِبُّ الصَّالحين ولَسْتُ منهم * أرجو أن أنالَ بهم شفاعــهْ**

وأكرهُ مَنْ بِضاعَتُــهُ المَعاصِي * وإنْ كُنَّا سَواءً في البِضـــاعهْ**

وتَحْقيقُ الأخُوَّةِ في اللَّهِ – تَعَالىٰ – سَبِيلٌ وسَبَبٌ لِتَجِدَ وتذوقَ حلاوةَ الإيمَانِ ، وتَسْتَكْمِلَ شُعَبَ الدِّينِ ومراتِبَهُ : فقَدْ جعَلَ النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّه عليه وسلَّمَ – أُخُوَّةَ الدِّينِ والحُبَّ في اللَّهِ والمَودَّةَ لوجهِهِ واحدةً من ثلاثةِ أعمالٍ يَجِدُ بها المُؤمِنُ حلاوةَ الإيمانِ في قلْبِهِ ، ويَشْعُرَ بانْشِرَاحِ صَدْرِهِ وزَكَاةِ نَفْسِهِ وطُمَأنينَةِ قَلْبِهِ :

روىٰ البُخَاريُّ (١٥) ومُسْلِمٌ (٦٠) وغَيْرُهُما عن أنسِ بنِ مَالكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – : أنَّ النَّبيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّم – قال : " ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد بهِنَّ حَلاوةَ الإيمان " – أيْ : ثلاثةُ أوصافٍ وخِصَالٍ مَن اتَّصَفَ بها ، وثلاثةُ أعمالٍ مَن جاهد نفسَهُ عَلَيْها وأتىٰ بها – " ثلاثٌ مَن كُنَّ فيهِ وجد بِهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ : أنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أحَبَّ إليْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا للَّهِ ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّار "

" أنْ يكونَ اللَّهُ ورسُولُهُ أحَبَّ إليه مِمَّا سِواهُما " : أحَبَّ إليه من رُوحِهِ ونَفْسِهِ ، أحَبَّ إليْهِ من أوْلادِهِ وزَوْجِهِ ، أحَبَّ إليْهِ من أبيهِ وأُمِّهِ ، وأخيهِ وأخْتِهِ ، أحَبَّ إليْهِ من مالِهِ وتِجَارَتِهِ ، وعَمَلِهِ ووظيفَتِهِ ، أحبَّ إليه من دارِهِ ومُلْكِهِ ، وبَلَدِهِ ووطنِهِ .

وبالجُملَة : " أنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أحَبَّ إليه مِمَّا سِواهُمَا "

فإنَّ اللهَ – تعَالىٰ – تَوَعَّدَ مَنْ أحبَّ شَيْئًا مِنْ ذلك أكثرَ مِن حُبِّهِ للَّهِ ورسُولِهِ = توعَّدَه بمحنةٍ ومُصِيبةٍ عاجلةٍ غيْرِ آجِلةٍ في الدُّنْيا قبْلَ الآخِرةِ ، وسَمَّاه فاسِقًا ، وحكمَ أنَّه لا يَهْديه ، فقال – عزَّ مِن قائلٍ – :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أيْ : انْتَظِروا بلِيَّةً وفتنةً تجْعلُ الحليمَ فيكم حيرانًا ، ارْتَقِبُوا مِحْنةً ومُصِيبةً قد تكونُ في عافيةِ بدنِهِ ، أو في خرابِ دينِهِ ومَوتِ ضميرِهِ ، أو في مالِهِ وثروتِهِ ، أو في فسادَ أولادِهِ وزوجتِهِ ، ولو بعد كِبَرِ سِنِّهِ وضَعْفِ قوَّتِهِ ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ثُمَّ حَكَمَ عَلَيهِم بالفِسْقِ وأنَّهُ لا يَهْدِيهِم ﴿ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التَّوبة /٢٤]

وقال اللهُ – تعالىٰ – : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزُّمَر /٤٥]

" إذا ذُكِرَ اللَّهُ وحدَهُ " : إذا ذُكِرَ الإيمانُ به وطاعةُ أمرِهِ ، إذا ذُكِرَ دينُهُ وَوَحْيُهُ وتَحْكيمُ شَرْعِهِ ، إذا ذُكِرَ كِتابُهُ وسُنَّةُ رسُولِهِ : ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الذين لا يؤمنون بالآخِرَةِ ﴾ .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ : إذا ذُكِرت الأملاكُ والأموالُ ، إذا ذُكِرَت المَصَالِحُ والأعْمَالُ ، إذا ذُكِرَت المَنَاصِبُ والوظائفُ ، إذا ذُكِرَت المكاسِبُ والتِّجَارات ، إذا ذُكِرتْ الأنسابُ والقرابات ، إذا ذُكِرَت الأوطانُ والقَوميَّات ، إذا ذُكِرَتْ اللَّذَةُ والشَّهَواتُ ، إذا ذُكِرَت النِّساءُ بيْنَ الرِّجَال ، وذُكِرَ الرِّجَالُ بيْن النِّساء = أقبلَ بعضُهُم علىٰ بَعْضٍ وتَهَلَّلُوا : ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

وقال اللهُ – تَعَالَىٰ – : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أيْ : هل يَسْتَوِي مَنْ شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ للإسْلامِ ، وجَعَلَ قُرَّةَ عَيْنِهِ في تَعَلُّم دِينِهِ وتَعْلِيمِهِ والعملِ به والدَّعوةِ إليه ، وهو علىٰ بصيرة من أمرِهِ = هل يَسْتَوِي هذا مع مَنْ هو قاسي القَلْبِ خبيثُ النَّفْسِ غليظُ الطَّبعِ بعِيدٌ عن الحَقِّ ؟!

﴿ فويْلٌ للقاسِيَةِ قُلُوبُهُم من ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : فلا تَخْشَعُ لكلامِهِ، ولا تَخضعُ لأحكامِهِ ، ولا تَعْتَبِرُ بآياتِهِ ، ولا تلينُ عندَ ذِكْرِهِ ، ولا تَسْتَفِيدُ مِنْ وَحْيِهِ ، ولا تَعِي ولا تَفْهَم .

﴿ أولئكَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي : فهؤلاءِ لهُم الوَيْلُ الشَّديدُ والخِزْيُ الأكيدُ ، والعِقَابُ الأليمُ ، والعذابُ العظيم ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانُ *** ولا دنيا لمَنْ لم يُحْي ديناً

ومَنْ رضىَ الحياةَ بغيرِ دينٍ *** فقد جعلَ الفناءَ لها قريناً

وهذا بخِلافِ المُؤْمِنِين الخُلَّصِ والمُسْلِمينَ الكُمَّل الذين خالَطَتْ بَشَاشةُ الإيمانِ قلوبَهُم ، وأصْبَحَ الدِّينُ يَسْري في عُرُوقِهِم : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة/٢٢]

وروىٰ البُخَاريُّ (١٥) ومسلِمٌ (٤٤) وغيرُهُما عن أنسِ بن مالكٍ – رضِيَ اللَّهُ عنْه – قال : قال رسولُ اللَّهُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّمَ – : " لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتَّىٰ أكونَ – أيْ : الرَّسُولُ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – أحَبَّ إلَيْهِ من ولدِهِ ووالدِهِ والنَّاسِ أجمعين " .

وروىٰ البُخاريُّ في " صحِيحِهِ " (٦٦٣٢) عن عبد اللَّه بن هِشَامٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنْه – قال : كُنَّا مع النَّبِيِّ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسَلَّمَ – وهو آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ – أيْ : يدُهُ في يَدِهِ ، وكَفُّهُ في كَفِّهِ – ، فقال له عُمَرُ : يا رسولَ اللَّهِ لأنتَ أحَبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ إلا من نَفْسِي .

فقال له النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : " لا والذي نَفْسِي بيَدِهِ حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليكَ من نَفْسِكَ "

فقال له عُمَرُ : فإنَّه الآنَ واللَّهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من نَفْسي .

هكذا مُبَاشَرةً بدون تردُّدٍ أو تفكيرٍ ، لقوَّةِ دينِهِ ورُسُوخِ يقينِهِ .

فإنَّ المؤمن الصَّادقَ يَعْزِمُ علَىٰ تغيير نَمَطِ حياته وطريقةَ معيشتِهِ لِيُرضِيَ اللَّهَ ورسولَهُ ، يُغيِّرُ أفكارَهُ وطموحَاتِهِ ، يُغيِّرُ آمالَهُ واهتماماتِهِ ، يُغيِّرُ أصْحابَهُ وأصدقاءَهُ ، يُغَيِّرُ بيْتَهُ ومدينَتَهُ ، يُهاجِرُ من بلدِهِ ووطنِه إذا احتاجَ الأمرُ إلىٰ ذلك لِيَرْضىٰ عنه اللَّهُ ورسُولُهُ .

قال له عُمَرُ : فإنَّهُ الآنَ واللَّهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من نَفْسي .

فقال له النَّبيُّ – صَلَّي اللَّهُ عليه وسَلَّم – : " فالآنَ يا عُمَرُ " .

أيْ : الآنَ تمَّ دينُكَ واكتَمَلَ إيمانُكَ لمَّا اكتَمَلَت مَحَبَّتُك ، وكأنَّ عمرَ يقولُ له :

نسينا في ودادِكَ كلَّ غالٍ *** فأنتَ اليومَ أغلى ما لَدَيْنا

نُلامُ على محبَّتِكُم ويكفي *** لنا شَرَفٌ نُلامُ وما علينا

ولمَّا نَلْقَكُمْ لكنَّ شوقاً *** يُذكِّرُنا فكيفَ إذا التقينا

تَسَلَّى النَّاسُ بالدنيا وإنَّا *** لَعَمْرُ اللهِ بعدكَ ما سَلَيْنا

والشَّاهدُ من الحديثِ الأصْلِ : قولُهُ في علاماتِ الإيمانِ : " وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا للَّهِ " .

لا يُحبُّه لِنَسَبِهِ وقرابتِهِ ، لا يُحِبُّهُ لمَنْصِبِهِ ووجاهتِهِ ، لا يُحِبُّهُ لمالِهِ وثروتِهِ ، لا يُحِبُّهُ لحُسْنِ شَكْلِهِ وهيئتِهِ ، لا يُحِبُّهُ لأنَّه فنَّانٌ مُبدِعٌ ، ولا لأنَّه لاعبٌ متميِّزٌ ، ولا لأنَّه مشهورٌ من مشاهيرِ المُجْتَمَعِ .

وإنَّما يُحبُّه لدينِهِ وإيمانِهِ ، لورعِهِ وطاعتِهِ لربِّهِ ، يُحبُّهُ لعِلْمِهِ بالشَّرْعِ ودعوتِهِ إلىٰ الحَقِّ ، يُحبُّهُ لسَعْيِهِ في مَصَالحِ المُسْلمِينَ والإصْلاحِ بيْنَهُم ، وإزالةِ هُمُومِهِم والتَّخفيفِ من مُعاناتِهِم .

لا يَجْمَعُ بيْنَهُما مَصْلَحَةٌ ولا مَنْفَعَةٌ ، لا شَرِكَةٌ ولا تِجَارةٌ ، لا عَمَلٌ ولا دراسةٌ ، لا نَسَبٌ ولا قرابةٌ ، وليس بيْنهما إلا الإيمانُ الذي جَمَعَ اللَّهُ عليه قُلُوبَ المُؤمنين .

يُحِبُّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِهِ ، ويكرهُ لأخيه ما يكرهُ لنفسِهِ .

يُحافظُ علىٰ مال أخيه ويُحامِي عن عِرضِهِ كَمَا يُحَافِظُ علَىٰ مال نفْسِهِ ويُحامي عن عِرضِهِ هو .

يَتَمَنَّىٰ لأخيهِ دوامَ الهدايةِ والرَّشادِ ، والتَّوفيقِ والسَّدادِ كما يَتَمَنَّىٰ لنفْسِهِ سَوَاءً بسَواءٍ .

وروىٰ البُخاريُّ (١٣) ومُسْلِمٌ (٤٥) وغيْرُهُما عن أنسِ بن مالكٍ – رَضِيَ اللَّه عنه - : أنَّ النَّبيَّ – صَلَّىٰ اللهُ عليه وسَلَّم – قال : " لا يُؤمِنُ أحدُكم حتَّىٰ يُحِبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِهِ " .

وهذا الحديثُ محنةٌ كبيرةٌ علىٰ نفوسِ كثيرٍ من المسلمين اليَومَ ، فلا يَجُوزُ لمؤمنٍ أنْ يُحِبَّ لنفسه من الخير ما لا يُحِبُّهُ لأخيه المُسْلِمِ ، ولا يجوزُ له أن يَتَّمَنَّي لأخيه من الخَيْرِ أقلَّ ممَّا يَتَمَنَّاه لنَفْسِهِ .

وروىٰ الإمامُ أحمد في " المُسْنِدِ " (٣/ ٤٣٨و٤٤٠) والتِّرمذيُّ في " الجامع " (٢٥٢١) وغيرُهما بإسنادٍ فيه لينٌ وضَعْفٌ : عن مُعاذِ بن أنسٍ الجُهَني – رضِيَ اللَّهُ عنه - : أنَّ رسولَ اللَّه – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – قال : " مَنْ أعطَىٰ لله ومنعَ لله وأحَبَّ لله وأبغضَ لله وأنكحَ للَّهِ = فقد اسْتَكْمَلَ إيمانَهُ "

أيْ : إنَّ إيمانَهُ نَاقِصٌ ، ودينَهُ لا يَتِمُّ حتَّىٰ يكونَ عطاؤه إذا أعطَىٰ لله ، ومنعُهُ إذا منعَ لله ، وحُبُّهُ إذا أحبَّ لله ، وبُغضُه إذا أبغضَ لله ، وزواجُه إذا تزوَّجَ ، وتزويجُهُ إذا زوَّج = لله ، حينئذٍ يكتمِلُ إيمانُه ويَتِمُّ دِينُهُ

وأَحْبِبْ لحُبِّ الله مَنْ كان مؤمناً * وأبغِضْ لبُغضِ اللهِ أهْلَ التَّمرُّدِ**

وما الدِّينُ إلا الحُبُّ والبُغضُ والولا * كذاك البراءُ مِن كلِّ غاوٍ ومعتــدِ**

ومِن أعظم ثمرات الأخوَّة في اللَّهِ – تعالَىٰ – والحُبِّ فيه : أن يُظِلَّهُم اللَّهُ في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ : يومَ يَقُومُ النَّاسُ لربِّ العالمين ، يومَ يخرجُونَ مِنْ قبورِهم أفواجًا كأنَّهُم جَرادٌ مُنتَشِرٌ ، ويلْفَحُهُم لهِيبُ الشَّمسِ وهي فوقَ رؤوسِهِم ، ويَغْرَقُونَ في عَرَقِهِم ، ويَتَمَنَّىٰ كثيرٌ منهم لو يتخَلَّصون من طولِ يوم القيامة وحرِّهِ وشِدَّةِ كربِهِ = يَتَمَنَّوْنَ لو يَتَخَلَّصُون منه ولو إلىٰ النَّار !

يَظُنُّون أنَّ النَّارَ أخَفُّ حَرًّا من لهيبِ الشَّمس ، كالمُسْتَجِيرِ من الرَّمْضَاءِ بالسَّعيرِ ، ومِن لَسْعَةِ الزَّنبُورِ إلىٰ لدغةِ الحَيَّةِ والعَقْرَبِ ، ومن قرصة النَّملة إلىٰ قضمة الأسَدِ وفَكَّي الذِّئبِ .

في اليوم الذي يَخافُ فيه الأنبياءُ فمَنْ دونَهم ، ويفزَعُ فيه الكبيرُ والصَّغيرُ ، والعظيمُ والحقيرُ ، وكلُّهم يَقُولُ : نَفْسي نَفْسِي !

في هذا اليومِ العصيبِ نرىٰ جماعةً من المؤمنين ، مجموعةً من المُخْلِصِين ، لا يَفْزَعُون إذا فَزِعَ النَّاسُ ، ولا يَخَافونَ إذا خافَ النَّاسُ ، ولا يَحْزنون إذا حَزِنَ النَّاس ، يُظِلُّهم اللَّهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ .

ومِن هؤلاء الأصنافِ المُبَارَكين ، والمُهْتدين الآمنين : " رجلانِ تحابَّا في اللَّهِ : اجْتَمَعا عليه وافْتَرقا عليه " : لم تجْمَعْهُم مكاسبُ ولم تُفَرِّقْهُم خَسَائِرُ ، لَم تَجْمَعْهُم مصَالحُ ولم تُفَرِّقْهُم اختلافات ، لم تجْمَعْهُم أنْسَابٌ ولم تُفرِّقْهم خُصُوماتٌ .

روىٰ الإمامُ مُسْلِمٌ في " صَحِيحِهِ " (٢٥٦٦) وأحْمَدُ في " المُسْنَدِ " (٢/ ٢٣٧و٢٣٨و٣٧٠و٥٢٣و٥٣٥) : عن أبي هُرَيْرةَ – رضِيَ اللَّهُ عنه – قال : قال رسولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّم – : " إنَّ اللَّهَ – تَعَالَىٰ – يَقُولُ يومَ القِيَامَةِ : أيْنَ المُتَحَابُّون بجَلالِي ، اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي يَومَ لا ظِلَّ إلا ظِلِّي "

" أين المُتَحَابُّون بجَلالي " أيْ : بعَظَمَتِي : برجائهم لثوابي وخوفِهِم من عِقَابي وطَمَعِهِم في رحمَتِي واجتماعِهِم علىٰ طاعتي .

وروىٰ البُخَاريُّ (٦٢٩و١٣٥٧و٦١١٤و٦٤٢١) ومُسْلِمٌ (١٠٣١) وغَيْرُهُمَا عن أبي هريرةَ – رضِيَ اللَّهُ عنه – : أنَّ النَّبيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم – قال : " سَبْعةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ ......

فذكرَهم ، وذكرَ منهم : " ورجلانِ تَحَابا في اللَّهِ اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه " : اجتمعت أبدانُهما واجْتمعت قلوبُهُما واجْتَمَعت أرواحُهُما .

" والأرواح جنودٌ مُجَنَّدةٌ : فما تَعَارفَ مِنْها ائتلَفَ ، وما تَنَاكَرَ منها اختَلَفَ "

إنَّ القلوبَ لأجنادٌ مجــنَّـدةٌ *** للَّهِ في الأرْضِ بالأهْواءِ تعْتَـرِفُ

فما تَنَاكَرَ منها فهو مختَلِفٌ *** وما تَعَارَفَ منها فهو مؤتلِفُ

وروىٰ الطَّبريُّ في " تفسيرِهِ " (١٢/ ٢١١ - عالم الكتب) والنَّسائيُّ في " الكُبْرَىٰ " (١١٢٣٦) وأبو يَعْلَىٰ في " مُسْنَدِهِ " (٦١١٠) وابْنُ حِبَّان في " صحيحِهِ " (٥٧٣) وهو صحيحٌ بشَواهِدِهِ :

عن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللَّهُ عنْه - قال : قال رسولُ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللَّه عليه وسَلَّمَ - : " إنَّ مِن عبادِ اللَّهِ عباداً ليسوا بأنبياءَ ، يَغْبِطُهم الأنبياءُ والشُّهداء " أيْ : يتعجَّبُون من عُلُوِّ منزلتِهم ورفعةِ مَقَامِهِم وقُرْبِهِم من اللهِ - تَعالَىٰ - ومع ذلك ليسوا بأنبياءَ ولا شُهَداءَ !

قيل : مَن هؤلاءِ يا رسولَ اللَّهِ لعَلَّنا نُحِبُّهم ؟ قال : " هم قومٌ تَحابُّوا في اللَّهِ من غير أموالٍ ولا أنسابٍ ، وجوهُهم نُورٌ ، علَىٰ مَنَابرَ مِن نُورٍ ، لا يَخَافون إذا خافَ النَّاسُ ولا يَحْزنون إذا حَزِنَ النَّاسُ " .

وقرأ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّمَ - قولَهُ - تَعَالَىٰ - : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [**يونس/٦٢**]

ففسَّرَ ﴿ **أَوْلِيَاءَ اللَّهِ** ﴾ في الآيةِ بأنَّهُم المُتَحَابُّون في اللَّهِ - عزَّوجلَّ - ، وكَفَىٰ بذلك فضلاً وشرفًا وعِزًّا وفخراً للمُتَحَابِّين في اللَّهِ - عزَّ و جَلَّ - .

وأنا أُعْطِيكُم صُورةً ونَموذَجًا من هذه الأُخُوَّةِ الصَّادقةِ ، ومثالاً لهذه المودَّةِ الصَّافية والحُبِّ في اللَّهِ :

روىٰ البخاريُّ في " صحيحِهِ " (٣٧٨١) ورواه مسلمٌ (١٤٢٧) مُخْتَصَراً وغَيْرُهُما عن أنسِ بنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْه– قال : قَدِمَ علينا عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ –أيْ : مع المُهاجرين من مكَّةَ إلىٰ المدينة– فآخَىٰ رسُولُ اللَّهِ –صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّم– بينه وبين سعد بنِ الرَّبيعِ ، وكان سعدٌ كثيرَ المال ، فقال لعبد الرحمن : قد عَلِمَتْ الأنصارُ أنِّي من أكثرِهَا مالاً سأقسِمُ مالي بيني وبينَك شطرَيْن !

أيْ : نصفُ مالي كُلُّهُ لك ، ونصفُهُ الباقي لي أنا – قال : ولي امرأتان فانظُرْ أعْجَبَهُما إليك فأُطلِّقُها حتَّىٰ إذا انقضت عِدَّتُها تزوَّجتَها .

فقال له عبدُ الرحمن بنُ عَوفٍ : باركَ اللَّهُ لك في أهلِكَ ومالِك ، ولكنْ دُلُّوني علىٰ السُّوقِ .

فأتَىٰ السُّوقَ فلم يرجع يومئذٍ حتَّىٰ أفْضَلَ –أيْ : رَبِح– شيئًا من سَمْنٍ وأقِطٍ ، ثُمَّ تابعَ الغُدُوَّ إلىٰ السُّوقِ يومًا بعد يومٍ ، فلم يلبَثْ إلا يسيراً حتىٰ جاء رسولَ اللَّه –صَلَّىٰ اللهُ عليه وسَلَّم– وعليه أثَرُ صُفْرةْ –أيْ : أثَرٌ من طيبِ النِّساءِ الذي له لونٌ ، كالمَكياج في زماننا – .

فقال له رسولُ اللَّه –صَلَّىٰ اللهُ عليه وسَلَّم– : " مَهْيَم " –يعنِي : كَيْفَ حالُك وما شأنُك ، ومِن أين جاءك هذا الطِّيبُ ؟ – قال : تزوَّجتُ امرأةً من الأنصار يا رسولَ اللَّهِ .

فقال له الرَّسولُ –صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّم– : " ما سُقتَ إليها ؟ " –يعنِي : ما هو المَهْرُ أو الصَّدَاقُ الذي دفعتَهُ لها ؟ – قال : وزنُ نواةٍ من ذهبٍ .

فقال له الرَّسولُ –صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– : " باركَ اللَّهُ لك ، أولِمْ ولو بشاةٍ " .

فانظر إلىٰ صِدقِ سَعْد بن الرَّبيع ومواساتِهِ لأخيه لمَّا رأىٰ محنَتَه ، وأنَّه خرج مِن مكَّةَ لا دِرهَمَ له ولا متاع ، وتركَ كُلَّ أموالِه وأملاكِه وراء ظهرِهِ ، وخرجَ مهاجِراً إلىٰ اللَّهِ ورسُولِهِ ونُصرةً لدينِهِ ، فيُريدُ أن يقسِمَ مالَه نصفين ويُواسِيَ أخاه بنصف مالِهِ ، وأن يُطَلِّقَ إحدىٰ زوجتيه –مع شِدَّةِ غيرَتِهم علىٰ النِّساء– ، فإذا انتهتْ عِدَّتُها وطَهُرَت تزوَّجها أخوه .

وبقدرِ ما تُعجَبُ بكرَمِ سعدٍ ومواساتِهِ ، ونُبلِهِ ووفائِهِ وبذلِهِ وعطائِهِ = تُعجَبُ أيضًا بعِفَّةِ نفسِ عبد الرحمن وأنَّه لم تتطلَّع عينُه إلىٰ شيءٍ من أموالِ أخيه ، ولكنَّه كان تاجراً ذكِيًّا ، فأرادَ أن يستثمِرَ خبرَتَه فسألَ عن السُّوق مع أنَّه ليس معه مالٌ ، فبدأ يشتري ويبيعُ في ذِمَّتِهِ ، وشيئًا بعد شيءٍ ، ومرَّةً بعد مرَّةٍ ، ويومًا بعد يومٍ باركَ اللَّهِ له في صفقةِ يدِهِ ، ورَبِح المالَ حتَّىٰ استطاع أن يتزوَّجَ ، وأمَرَه الرَّسولُ أن يذبحَ وليمَةً ولو شاةً واحدةً ، بعدما كان لا يملِكُ قوتَ يومِهِ .

والشَّاهدُ من هذا : مواساةُ سعدِ بن الرَّبيع لأخيهِ ووقوفُه بجانبِهِ في وقتِ العُسرِ والشِّدَّة ، والرِّجالُ مواقف :

صديقُك الحقُّ مَنْ كان معك *** ومَن يَضرُّ نفسَهُ لِينفعك

ومَن إذا ريبُ الزمانِ صَدَعَكْ *** شَتَّتَ فيكَ شملَهُ لِيجمَعك

وذكر ابنُ الجوزيِّ – رحمه اللَّهِ – في كتابِ " التَّبْصرة " (٢/ ٣٠١-٣٠٢) : أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهم – رحمه اللَّهُ – كان في سَفَرٍ ومعه ثلاثةٌ مِن أصحابِهِ ، فأدركهم اللَّيلُ في سَفَرهم ، فدخلوا مَسْجِداً لِيَبيتوا فيه . وكان الجوُّ شاتياً وبارداً شديدَ البرودة ، ولم يكن للمَسْجِدِ بابٌ يحجزُ عنهم البردَ ، ومِن شدَّةِ تَعَبِهم وإعيائِهم نام أصْحابُهُ ، فلمَّا نَعِسُوا قام إبراهيمُ بْنُ أدهمٍ فوقف مكانَ الباب إلىٰ الصُّبْح لِيَحْمِيَ أصْحابَهُ من البردِ ، مع أنَّه أصابَهُ مِن التَّعب والإعياء ما أصَابَهُم ، ويريدُ أن يسْتَريحَ هو الآخَرُ وينامَ كنومِهم ، لكنَّه لشِدَّةِ حبِّهِ لهم ورحمتِه بهم تحاملَ علىٰ نفْسِهِ ووقف مكانَ البابِ إلىٰ الصُّبْح فلمَّا أصْبَحوا قال له أصْحابُهُ : لماذا لم تَنم ؟ قال : خشيتُ أن يُصيبَكم البردُ فقمتُ مَقامَ الباب !

يا إخوةَ الدّينِ في كلِّ مكانٍ وبلــدْ *** أنتمُ منّي وأنا منكم كروحٍ في جســدْ

وحدةٌ قد شادها اللهُ أضاءت للأبدْ *** وتسامت بشعارِ " قل هو اللهُ أحد "

وروىٰ ابنُ المُباركِ في " كتابِ الجِهادِ " (١١٦) وفي " كتابِ الزُّهدِ " (٤٨١) عن أبي جهمِ بنِ حُذَيْفَةَ العَدَوِيِّ قال : انْطَلَقتُ يَوْمَ اليَرْمُوكِ أطلبُ ابْنَ عمٍ لي ، وَمَعِي شَنَّةٌ من مَاء ، وأنا أقولُ : إنْ كان به رَمَقٌ سقيتُهُ ومَسَحْتُ به وجهَهُ .

قال : فإذا أنا به – أيْ : وجدتُّهُ – فقلتُ له : أَسْقِيكَ ؟ فأشارَ إليَّ " أنْ نَعَم " .

فلمَّا هممتُ أنْ أَسْقِيَهُ إذا رجلٌ آخَرَ يَقُول : " آه آه " من شِدَّةِ الوَجَعِ ، فأشارَ إليَّ ابنُ عَمِّي أنْ أنْطَلِقَ بالمَاءِ إلىٰ صاحبِهِ قَبْلَ أنْ يَشْربَ هو .

فأتيتُ إلىٰ الرجل فإذا هو هشامُ بنُ العاص ، فقلتُ له : أسْقِيكَ ؟ قال : نعم .

فلمَّا هممتُ أن أسقِيَه سمِعَ رجلاً آخَرَ يَقُولُ " آه آه " فأشارَ إليَّ هشامٌ أن أذْهَب بالماء إلىٰ هذا الرجل .

فجئتُ إلىٰ الرجلِ فإذا هو قد مات ، فرجعتُ إلىٰ هشامٍ فإذا هو قد مات ، فرجعتُ إلىٰ ابنِ عمِّي فإذا هو قد مات - رحمةُ الله عليهم أجْمَعِينَ - .

فانظُرْ : وهم يحتضِرون ، وهم في النَّزْعِ الأخيرِ ، وهم يرونَ المَوتَ يزحفُ إلىٰ أبْدانِهم ، والرُّوحُ تُسْحبُ مِنْ أعْضائهم ، وكلُّ واحِدٍ منهم في أمَسِّ الحَاجَةِ إلىٰ شَرْبةِ ماءٍ تَرْوي ظمأَهُ وتُذْهِبُ عَطَشَهُ ، لعلَّهُ يَسْتَرِدُّ أنْفَاسَهُ من جديدٍ ، لكنَّهُ بَعدما وجدها بَخِلَ بها علىٰ نَفْسِهِ وقال : أخِي هو أَوْلَىٰ بها وأحْوَجُ إليها منِّي ! فيموتُ هو ليُوَفِّرَها لأخيه !

هذا وهو في سِياقةِ المَوْتِ ، فيا تُرىٰ لو كان في حالِ الحَيَاة وعافِيَتُهُ في بدَنِهِ ، ويَسْتطيعُ أن يتَصَرَّفَ هل تتوقَّعُ أنَّه كان سيبخلُ علىٰ أخيه بشيءٍ من مالِهِ ؟ من جُهْدِهِ وعَرَقِهِ ؟ بشَيءٍ من وقتِهِ ؟ بشَيءٍ من تفكيرِه وعقلِهِ ؟ لا واللهِ ما أظُنُّه فيهم أبداً : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحَشْر /٩]

سُبحانَ اللَّهِ ! رُبَّ أخٍ لك لم تلدْهُ أُمُّك ، وليس مِن صُلبِ أبيك !

قال عمرُ بنُ الخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّه عنه - : ما أُعطِيَ عبدٌ بَعْدَ الإسْلامِ خيراً مِن أخٍ صالحٍ يُذَكِّرُه باللهِ ، فإذا رأىٰ أحدُكم مِن أخيه ودَّاً فليتمسَّكْ به .

وقال الحَسنُ بنُ أبي الحَسَنِ البَصْري : إخوانُنَا أحبُّ إلينا مِن أهلينا ، لأنَّ أهلنا يُذكِّروننا بالدنيا – أيْ : ويسْألوننا عليها - ، وإخوانُنا يُذكِّروننا باللَّهِ – ويُعينوننا علىٰ طاعتِهِ - .

ما ذاقت النَّفسُ على شهوةٍ *** ألذَّ مِن حُبِّ صديقٍ أمينِ

مَن فاته حُبُّ أخٍ صالحٍ *** فذلك المغبونُ حقَّ اليقينِ

والشَّافِعِيُّ – رحمه اللهُ – لَمَّا جَاءَ إلىٰ مِصْرَ آخَىٰ مُحَمَّدَ بنَ عبدِ الحَكَمِ ، وكان يُحِبُّهُ ويُقَرِّبُهُ ، ويُقْبِلُ عليه ويُجَالِسُهُ ، ويزورُه في بيتِهِ ، ويَقُولُ : ما يُقِيمُني بمصرَ غيرُه – أيْ : لا يُصَبِّرُني علىٰ الإقامةِ بِمِصْرَ والبقاءِ فيها شيءٌ غيرَ مَحَبَّةِ ومَوَدَّةِ وأُخُوَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الحَكَمِ - !

فاعتلَّ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الحَكَمِ يَومـًا - أيْ : مَرِضَ – فجاءَ الشَّافِعِيُّ يَعُودُهُ – أيْ : يزورُهُ في بَيْتِهِ – فلمَّا رآهُ قال :

مرِضَ الحَبِيبُ فزُرتُهُ *** فمرِضْتُ من خَوفي علَيْه

وجاء الحَبيبُ يزورُني *** فشُفيتُ مِن نظري إليهِ

قال اللَّهُ – تَعَالَىٰ - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات/١٠]

وقال النَّبيُّ – صلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم - : " المسلِمُ أخُو المُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُهُ – أيْ : بنَفْسِه – ولا يُسْلِمُه – أيْ : لا يَخْذُلُهُ ويَتْرُكُهُ فريسةً لِمَنْ يَظْلِمُهُ وهو يَقْدِرُ علىٰ نَصْرِهِ ولو بكلمةٍ - ، ولا يَحْقِرُهُ – أيْ : لا يَعِيبُهُ بكلمةٍ ولا إشَارةٍ ، ولا يُقَلِّلُ من شأنِهِ ، ولا يَحْتَقِرُ شَخْصَهُ ولا رأيَهُ - بحَسْبِ امْرئٍ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المُسلمَ "*

" ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِهِ ، ومَنْ فَرَّجَ عن مسلِمٍ كُربةً مِن كُرَبِ الدُّنْيا فَرَّجَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ ، ومَن يسَّرَ علىٰ مُعْسِرٍ يسَّرَ اللهُ عليْهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، واللهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخِيهِ "**

* رواه مسلمْ (٢٥٦٤) وأبوداود (٣٤٣٨و٣٤٤٣) وغيرُهما من حديثِ أبى هُرَيْرَةَ – رضِىَ اللهُ عنه - .

** رواه مسلمْ (٢٦٩٩) وأبوداود (١٤٥٥و٤٩٤٦) وغيرُهما مِنْ حديثِ أبى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه - .

وأيضـًا : فـإنَّ مـن أعـظـم ثـمـراتِ هـذه الـمـحبَّـة فِي اللهِ – تـعـالـىٰ – والـمـودَّةِ لأجـلِه :

أن يُـحبَّـك اللهُ وأنْ يـرضـىٰ عـنـك ، وأن يـكـونَ مـعـك فـىٰ عُـسْـرك ويُـسْـرِك ، والـشِّـدَّةِ والـرَّخـاءِ :

روىٰ الإمـامُ مسـلـم فِي " صحيحه " (٢٥٦٧) وغـيْـرُهُ عن أَبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ النَّبيِّ – صلىٰ الله عليه وسلم – قـال : " إنَّ رَجُلاً زَارَ أَخـًا لَهُ في قَريَة أُخْرَىٰ ، فَأَرْصَدَ الله تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَدْرَجَتِهِ مَلَكـًا ، فَلَمَّا أَتَىٰ عَلَيهِ ، قَالَ : أَيْنَ تُريدُ ؟ قَالَ : أُريدُ أخـًا لي في هذِهِ القَريَةِ . قَالَ : هَلْ لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَة تَرُبُّهَا عَلَيهِ ؟ قَالَ : لا ، غَيْرَ أَنِّي أحْبَبْتُهُ في الله تَعَالَىٰ ، قَالَ : فإنِّي رَسُول الله إلَيْكَ بَأَنَّ الله قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أحْبَبْتَهُ فِيهِ))

" أرْصَـدَهُ " أيْ : وَكَّـلَـهُ بحِفْـظِهِ .

وَ " الـمَـدْرَجَـةُ " بِفْـتْـحِ الميـمِ والـرَّاءِ : الطَّـرِيـقُ .

و " تَـرُبُّـهَـا " : تُـؤدِّيـهـا لـه وتـقُـومُ بـهَـا ، وَتَسْعَـىٰ في صَـلاحِـهَـا .